# توفيق الحكيم
## بين الأدب والفن
### للأستاذ دريني خشبة

لا فرق مطلقاً بين أن تقرأ توفيق الحكيم وبين أن تقف في متحف للفنون الرفيعة ، أو أن تسمع إلى قطعة موسيقية ، أو أن تجلس هادئاً ساكناً في مسرح عظيم تشهد مأساة تشجيك أو ملهاة تسليك ...

تقرأ توفيق الحكيم فتنظر إلى التماثيل الرائعة تتحرك وتتكلم وتنظر وتبتسم وتمتلئ بالحياة وتفيض بالجمال ... ثم ترى إلى الصورة التي انسجمت ألوانها وأحكمت خطوطها وأبدع فيها توزيع المنظر ، وأكسبتها « اللمسات » الأخيرة سر المصور ، وجرت في أركانها بعبقريته ... فإذا أفقت من ذلك سمعت ( أزاميل ) النحاتين ومطارقهم تدق ... كأنها تشترك في تأليف لحن موسيقي ... فإذا أدرت عينيك شهدت أبهاء المتحف وردهاته قد امتلأت بالدُّمى والتماثيل والصور ...

ومن الظريف اللطيف في متحف توفيق الحكيم أنك ترى به التمثال الكامل والتمثال النصفي ... كما ترى فيه حطاماً من تماثيل لم تَرَ . فأهوى عليها بمنحته ومطرقته فجعلها هشيما ، ثم عَزَّت عليه فلم يلق بها خارج المتحف ، بل تركها فيه ... لأنها وإن فقدت ذراعاً أو ذراعين ، أو نقصت ساق أو ساقين ، فإنها تمثل في ذهنه فكرة مقدسة ... الفكرة التي أوحت إليه « مشروع » التمثال ، ولهذا تحتفظ المتاحف بالتماثيل المهشمة !

وقل مثل هذا في صور الرسام الفنان توفيق الحكيم ، فإلى جانب الصور الكاملة البارعة ، التي أخذت حظها الموفور من حسن التوزيع والعدل بين الألوان ، ترى صوراً لم يتقن « طبخ » ألوانها حَسَب الأصول الفنية ، ومع هذا فقد احتفظ بها في المتحف كما احتفظ بتماثيله المهشمة للسبب الذي أسلفنا

أما موسيقا توفيق الحكيم فهي من هذا النوع الصامت الذي يخامر القلب ويجري مع الدم ويرهف الأعصاب ... وقد تكون موسيقاه « زائطة » أحياناً ، وهي لا تكون « زائطة » إلا إذا أفاق من سكرة الأدب والفكر والفن ، واستسلم إلى هذا الإلْه الطفل المعربد « أمور ! » أو « كيوبيد » ذي الجناحين

---

إن أجبتم دعوتي فسترون أن الجمهور يقبل على الفصاحة وينصرف عن التهريج

كان في عصر شوقي وحافظ ألف زجّال وزجّال ، فإلى من استمع الشعب المصري ؟ استمع إلى الزجالين وتصامّ عن شوقي وحافظ !

اتقوا الله في وطنكم بإذاعة العامية بهذه البلاد ، فإن لم تتقوا الله في وطنكم فاتقوه في أنفسكم ، قبل أن تحل عليكم عواقب الإهمال

وما أقوله عن المصريين أقوله عن إخوانهم في سائر الأقطار العربية ، وهي أقطار تنتظر من يسمو بها إلى أرفع منازل البيان

لقد جدَّت بنا الأيام ، والأيام لا تعرف الهزل ، فلينصرف الهازلون عن إفكهم المرذول ، إن كانوا يعقلون

اللغة الفصيحة هي لغة العرب في هذا العهد وفيما يليه من العهود ، فليعرف من لم يكن يعرف أن اللغة العامية لغة العوام لا لغة الخواصّ ، وأن العرب قد برئت عيونهم من غشاوة الإسفاف والابتذال

* * *

أنا أدعوكم إلى الاحتفال بعيد اللغة العربية ، فقد انتصرتْ على أبنائها ، لا على أعدائها ؟ فما كان للغة العربية أعداء غير أولئك الأبناء

في انجلترة وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعاتٌ عربية لا تعرف غير اللغة الفصيحة ، لأنها تريد أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية ، واللغة الفصيحة هي لغة العرب الدولية ، كما يفهم الأوربيون والأمريكيون ، وهم أهل الخبرة بطبائع النفوس في هذا الجيل

اسمعوا صوت الزمن ، إن لم تسمعوا صوت الحق ، واحتفلوا معي بعيد اللغة العربية في عيد القمر ، وهو عيد التضحية ، وعيد الوفاء .

زكي مبارك

والكنانتين، يصيبه منهما بسهم ذهبي فيخفق فؤاده بحب إيما ؛ يُريشه بسهم « رصاصي ! » فيلمن جميع بنات حواء ! عند ذلك تأتي موسيقاه ( زائطة ) أو ( نشازاً ) ، ويكاد الإنسان يفضل عليها موسيقا ( المزمار البلدى ! )

ترى ... لو أن الأستاذ الحكيم كان قد فرغ إلى فنون التصوير والنحت والموسيقا كما فرغ اليوم إلى ( فن الأدب ) فأى ثروة كان يستطيع أن يمد بها هذه الفنون الناعمة اليوم فى مصر ، وأى حياة كان يشيعها فيها ؟

لقد نشأ الحكيم ذوقه الأدبى فى أبهاء متحف اللوفر بفرنسا ، ولا داعى مطلقاً لأن نكتب ما كتبه هو عن ذلك فى ( زهرة العمر ) ذلك المفتاح السحرى الذى يسلك بك إلى جنة توفيق الحكيم ، وإلى جحيمه أيضاً ... فاسمع إليه يقول لصديقه أندريه ، أو يدعى أنه يقول له ، وذلك بعد أن أخبره أنه ذهب إلى اللوفر كعادته ، وأنه ينفق اليوم بطوله هناك ، وأنه يخصص يوماً كاملاً لكل قاعة من قاعاته ، لأنه ليس سائحاً متعجلاً ... ( إنى أبحث أمام كل لوحة عن سر اختيار هذه الألوان دون تلك ، وعن مواطن بردتها وحرارتها ، وعن رسم أشخاصها وبروز أخلاقهم واتساق جموعهم وحركتهم وسكونهم؛ كل لوحة فى الحقيقة ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار ، لا داخل مسرح ، تقوم فيه الألوان مقام الحوار . إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد فى أفراح ( قانا ) لوحة (فيرونيز) ، وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين وصياح الشاربين ورنين الكؤوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن . إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة لقريب من طريقة إبرازها بالقلم . إن أساس العمل واحد فيهما ... الملاحظة والإحساس ثم التعبير بالرسم والتلوين ، بل إن الروح أحياناً ليتشابه . لطالما وقفت عيناى طويلاً على صفحات ناثر أو شاعر ، وأنا كالمأخوذ ، أفحص السطور بيدى لأتبين إن كانت من مداد أو من أثير[1] ... )

وهذا تعبير صادق عن طريقة توفيق الحكيم التى يتناول بها قطعه الأدبية الرفيعة . إنه يصنع بها ما يصنع المثال أو المصور ، يتناولها من كل جانب ، وينظر إليها من جميع نواحيها ، فإذا لم ترقه بعد ذلك كله ، سهل عليه أن يمزقها : فى أكثر من موضع من كتابه يحدثك عن القصص الحوارية التى أتمها ثم لم تعجبه فمزقها ... كما يحدثك عن هذه الاختبارات التى كان يجريها على بعض تلك القصص ، بإعطائها بعض الأدباء الفرنسيين ليروا رأيهم فيها ، ومن هؤلاء هذا المسيو ( هاب ) الذى كان يعذب الحكيم دائماً بهذه القولة : ( نعم ... نعم ... لديك موهبة الحوار ... ولكن ... ! )[1] وكانت ... لكن ... هذه تعصف بنفسه كما تعصف يد الطفل بعنق الكتكوت ! ... وقد قالها ناقد آخر غير المسيو هاب بعد أن قرأ قصة أبلغها الحكيم إلى خمسمائة صفحة ، حيث قال : ( أفكار كثيرة وموهبة فى الحوار ... لكن ... ! ) فما كان من صاحبنا إلا أن مزق هذه القصة أيضاً !

هكذا كان الحكيم يُنشئ فنه وأدبه ... وكان له أستاذ فى الفن ، هو رجل فقير كان يقنع منه بأجر تافه لا يعدو الأكل والشرب ( من أوسط ما يطعم هو ويشرب ! ) على أن يصحبه إلى المتاحف والميادين والمتنزهات ، حيث يشرح له دقائق الفن ويُبصّره بأسراره ، ... وهنا تتحشرج الكلمات فى صدر قلمى ... لقد قتل الحكيم أستاذه هذا بعد أن استغنى عنه ... لقد جاءه الرجل فى ليلة عاصفة شديدة البرد وهو يرتجف ... ويطلب ديناراً يقيه القر ... ( فلم أرد عليه بكلمة ... ولكنى أخرجت له ورقة مالية صغيرة وضعتها فى كفه كأنه شحاذ ، فرفع الشيخ قبعته شكراً وانصرف صامتاً ... ! ) وإذا أحببت يا صديقى القارئ أن تدخل جحيم الحكيم فاقرأ هذه المأساة ( ص ٧٤ ) ، لأنى لا أوثر أن أدخلها معك !

بَصّر هذا الرجل الفنان الذى كان يربى على الثمانين أديبنا العظيم بدقائق الفن ، وأطلعه على أسراره ، كما بصره المسيو هاب بالأدب الكلاسيكى كله ، أو أحسن روائعه ... فهل تدرى من بصره بالموسيقا ؟ ... إنها عجوز شمطاء ... إنها أم المسيو

(١) ص ٤٨

(١) ص ١٩٩

أندريه الذى يقول لنا الحكيم إن هذا الكتاب الكبير الجميل هو الرسائل التى كتبها إليه من فرنسا إلى فرنسا ... ومن الإسكندرية إلى فرنسا ، ومن طنطا ومن دسوق إلى فرنسا أيضاً . فلقد كان الحكيم يجرها من المطبخ بفوطتها لتجلس إلى البيانو حيث تغنى له من « كارمن » ومن « فاوست » ومن « أجراس كورنفيل » ... إلى أن عرف طريق دار الأوبرا والأوبرا كوميك ثم قاعات الكونسير « كولون » و « جافو » و « بادلو » فلم يعد إليها بعد ذلك قط[1] ! أى كما صنع مع الشاعر الفنان البرناسى تماماً ... وهنا أيضاً تتفتح أبواب جحيم الحكيم ، فاختر لنفسك أيها القارئ ! !

ولست أدرى لماذا لا نشبها جَذَعَةً بين موسيقيينا وبين توفيق الحكيم بمناسبة جزاء سنمار الذى لقيته هذه الأستاذة العجوز على يديه بعد أن كانت السبب فى معرفته الأوبرا والأوبرا كوميك والسيمفونيات وبتهوفن ! أيها الموسيقيون المصريون اعلموا أن الأستاذ توفيق الحكيم لا يطرب لكم ، بل هو يضيق بكم ، فهو يقول ، وتستطيعون أن تجدوا هذا الكلام فى كتابه زهرة العمر ص ١٦٦ « ... أغالط نفسى ؟ أخشى أن يكون حبى للموسيقا الأوربية مصدره أنها قبل كل شىء بناء ذهنى . ذلك أن موسيقانا ، وهى قائمة على الطرب والتأثير المادى ، لا تسترعى منى اليوم أى التفات . الواقع أن الموسيقا الأوربية بناء فى ذهنى ، شأنها فى ذلك شأن القصة التمثيلية ، والهندسة المعمارية ... بل شأن المذهب الفلسفى والتفكير الرياضى ! . » فما قول الأستاذة محمد عبد الوهاب ورياض السنباطى والقصبجى وفاضل الشوا فى هذا الكلام العجيب عن الموسيقا ؟ ! ومتى يحظى منكم الأستاذ الحكيم بشىء من المعادلات الجبرية وحساب المثلثات والجذور التكعيبية وقوانين طورشيلى وفيثاغورس ، وجابر بن حيان والبيرونى تبثونها له فى ألحانكم لترتفعوا بها عن الطرب والتأثير المادى ؟ ! لست أدرى كيف تكون الموسيقا التى لا تطرب ؟ ولست أدرى كذلك كيف يكون تأثير الموسيقا ماديا ؟! أعترف أولاً أننى لا علم لى مطلقاً بالموسيقا كعلم ... بيد أننى أطرب ، وهذا ما يعيبه الأستاذ الحكيم على الموسيقى الشرقية — كموسيقا عبد الوهاب والسنباطى والقصبجى وفاضل الشوا — وكثيراً ما أكتفى بالإصغاء إلى المقدمات الموسيقية عن الغناء ، لكننى ما أحسست مرة أن يدى أو رجلى أو ظهرى مثلاً أو أى عضلة من جسمى هى التى وقع عليها التأثير الموسيقى ؛ بل الذى كان يتأثر فى كل مرة هى روحى :.. أى أعصابى ... والذى أعرفه أن المخ هو مركز الأعصاب كما أنه مركز الذهن . مع علمى بأن جدلاً كثيراً يدور حول هذه الحقائق النسبية ... فكيف إذن يريد الأستاذ الحكيم أن تقوم موسيقا على غير التطريب ؟ وماذا يعنى بقوله إن الموسيقا الشرقية تقوم على الأثر المادى ؟ ! أنا أفهم أن يقال إن الموسيقا الشرقية ما تزال متأخرة بل جامدة برغم ما أنشأ فيها عبد الوهاب والسنباطى والقصبجى وفاضل الشوا وغيرهم من كرام الموسيقيين ، ولكنها تستطيع مع هذا ، أن تقف على قدميها إلى جانب الموسيقا الغربية ، وتستطيع أن تفاخرها بميزات ( روحية ) ليست لها ... أخشى يا حضرات الموسيقيين الشرقيين عبد الوهاب والسنباطى والقصبجى والشوا أن يضحك الأستاذ الحكيم ملء شدقيه من كلامى هذا عن الموسيقا الشرقية التى ابتدعتم فيها الأعاجيب فماذا أنتم صانعون ؟

على أننى أحب أن ألفت نظر سائر الفنانين المصريين إلى ثورة الأستاذ توفيق الحكيم عليهم وإزرائه بهم ... الأستاذ الحكيم الذى يرى ... « أن الفنان هو الكائن العجيب الذى يجب أن يلخص الطبيعة كلها بمادتها وروحها فى ذاته الضئيلة المحدودة ... ذلك الكائن الذى يعيش فى داخله الحيوان ... والإله جنباً إلى جنب[1] ! ... »

لله ما أبدع هذا الكلام وما أروعه ! لقد عاد توفيق الحكيم إلى مصر من فرنسا ، فزعم أنه عاد إلى الصحراء[2] ! الصحراء التى لا تعرف الحياة الفكرية . لقد تعب من كل شىء ، ومن كل إنسان ، ويئس من أن بلداً كمصر يصبح فى يوم قريب ذا حياة فكرية ؛ لأنه لا حياة فى مصر لمن يعيش للفكر . إنه يريد

(١) ص ٦٩

(١) ص ١٧٠ (٢) ٩١

تحطيم كل شيء ، ليهيم على وجهه فى بلاد الأرض ، لا تحده غاية ولا توقفه غاية ، ولا يوقفه غرض[١] ! إنه يتطلب إلى صديقه أن يحدثه عما عندد فى الشاطىء الآخر المائج بأضواء الحياة الفكرية[٢] ، وهو يخبره أنه حينما عاد إلى الشرق — أى مصر — أصابه بادىء الأمر ذهول ، ذهول عن أندريه وعن كل شيء ، كأن وقع من السحاب حقيقة ، ثم أخذ يتصفح الوجوه والأشياء حوله . يا لها من حقيقة مؤلمة ! لقد رأى نفسه فى شبه عالم نائم . لقد شعر بما قد يشعر من يهبط سطح القمر الأجرد المتم ، وعاش بضعة شهور بغير نفس ولا إدراك . وحينما ألقى إليه خطاب من أندريه أفاقه من (أفيون الشرق !) فرأى أنه فى حاجة إلى شخص يهز له المصباح من الشاطىء الآخر[٣] ، لأنه يعيش فى صحراء[٤] يضيع فى أرجائها . وأنه يتألم آلام من يعيش فى غير عصره . « قد تسألنى أليس فى مصر طبقة المستنيرين ؟ نعم في مصر طبقة مستنيرة فيها كثيرون عاشوا فى أوربا وعرفوا الثقافة الأوربية ، وفيهم من يعرف الفن الأوربى ويتكلم عن المصورين والتصوير ، ومن يتكلم حتى عن رامسن وباخ وهاندل . ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف أن الثقافة الحقيقية شيء والكلام فيها شيء آخر ... إن هؤلاء المتكلمين فى الموسيقا والتصوير والفنون يعرفونها برؤوسهم ولا يدركونها بحواسهم . إن المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الإحساس والتذوق والتغذى بمختلف الفنون ... الثقافة ليست كلاماً نملأ به الرؤوس ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس . إذا سلمت بقولى هذا فلا أبالغ إذا قلت لك أن ليس فى مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين[٥] »

ولست أدرى إذا أردنا أن نحصى هؤلاء التسعة أو الثمانية المثقفين فى مصر فكم منهم يكون من فئة المصورين وكم يكون — أو يكونون — من فئة الموسيقيين ، ثم من الممثلين والممثلين ورجال الأدب والفكر والصحافة والمسرح ( مؤلفين ومخرجين ومهندسين ... )

ولست أدرى ماذا يريد الأستاذ توفيق من النزول بمصر العزيزة والشرق الناهض إلى مراتب البيد ، وبعدد المثقفين فى نظره إلى ما دون العشرة مع أن مصر والشرق بخير ، وهما يعجان بالمثقفين الذين تنطبق عليهم شروطه الثقافية انطباقاً تاماً ومع أن عدد المصورين وحدهم يربى فى مصر وحدها على الثلاثة أو الأربعة ، وعدد الممثلين يزيد على الأربعة أو الخمسة ، وعدد الموسيقيين يزيد على الإثنين أو الثلاثة ، وعدد الأدباء يزيد وحده على الثمانية أو التسعة — والأستاذ الحكيم منهم بالطبع بل فى مقدمتهم ، وعدد المخرجين المسرحيين يقارب الثلاثة ، وعدد الممثلين والمغنين والمغنيات يزيد على الستة ... وإن كان عدد المؤلفين المسرحيين لا يصح أن يجاوز الواحد ... وذلك عند ما يؤلف توفيق الحكيم للمسرح

لولا مغالاة الحكيم فى التشاؤم ... لكان كل ما قاله فى زهرة العمر حقاً ... ولا سيما هذا الكلام الذى قاله عن الأدب العربى واللغة العربية وأساليب الكتابة العربية ، مما يحتاج حديثاً آخر ، وليتأخر الكتاب على الأستاذ الزيات أسبوعاً ثالثاً ، فما أكثر الهدايا التى تصل إلى الرسالة من المؤلفين اليوم .

دريني خشبة

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٩٥ (٣) ص ١١٠ (٤) ٢١٠ (٥) ٢١٣


إدارة البلديات العامة — مشتريات

إعلان مزايدة

يطرح مجلس بنى سويف البلدى فى المزاد العلنى بيع المهمات المستهلكة الموجودة بمخازنه وقد تحدد ظهر يوم السبت ٢١ يناير ١٩٤٤ للمزايدة بديوان البلدية ويمكن الحصول على بيان المهمات من المجلس نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم كما يمكن معاينتها بمخازنه .

١٦٢٧